أبو عبيدة معمر ابن المثنى

أعــلام التفسيـر

أبو عبيدة معمر بن المثنى
صاحـب كتـاب: مجـاز القـرآن

هو معمر بن المثنى التيمي تيم قريش، أو تيم بنى مرّة على خلاف بينهم، وهو على القولين معا مولى لتيم وقد اختلفوا في مولده، ولعل الأقرب إلى الصحة أنه ولد في سنة 110 هـ، وتتحدث المراجع عن آباء أبى عبيدة، فتقول - استنادا إلى قول يرويه أبو العيناء عن أبى عبيدة - إنه يهودىّ الأصل، على أننا نظن أن أبا عبيدة في حديثه عن آبائه لم يكن يقصد إلى الجدّ، وجوّ هذا الحديث يشعر بهذا الذي نظنه، غير أن شعوبية أبى عبيدة، وحدته في نقد معاصريه كل ذلك جعل خصومه يحملون هذا القول منه محمل الجدّ لينالوا منه، أما أنه كان يفتخر بيهوديته وهو ما يراه بعض الباحثين الغربيين فبناء على غير أساس، ثم هو بعد غير مفهوم من نص أبى عبيدة الذي يرويه أبو العيناء.

ولم تذكر المراجع أين ولد أبو عبيدة، ومع ذلك فهى تضعه في عداد علماء البصرة فلعله ولديها، بعد حياة ليست قصيرة اكتمل فيها نضجه العلمي ارتحل إلى بغداد في سنة ثمانية وثمانين ومائة حيث جالس الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى وسمعا منه.

ثم إنه خرج إلى بلاد فارس قاصدا موسى بن عبد الرحمن الهلالىّ.

وفيما بين سنتى 209، و213 هـ توفى وقد عمّر، وكان وقد بلغ من الكبر المدى - يتمثل بقول الطمحان القينى:

حنتنى حانيات الدهر حتّى :: كأنى خاتل يدنو لصيد
قريب الخطو يحسب من رآنى : ولست مقيّدا - أنى بقيد

::
:

ولم يحضر جنازته - فيما يقول مؤرخوه - أحد لأنه كان شديد النقد لمعاصريه [1].

مذهبه:

تكاد تتفق كلمتهم على أن أبا عبيدة كان من الخوارج، وأنه كان يكتم ذلك ولا يعلنه، ثم اختلفت رواياتهم في الفرقة التي كان ينتمى إليها فبعضهم يقول إنه كان صفريا، على حين أن البعض الآخر منهم يرى أنه كان من الأباضية واستدلوا على انتسابه إلى مذهب الخوارج بأنه كان كثيرا ما ينشد أشعارهم ويفيض في الحديث عنهم وعن أخبارهم ومفاخرهم - يفعل ذلك في تقدير لهم وإعجاب بهم ثم نسبوه بعد إلى القول بالقدر، وربما كان سبب ذلك أنه كان يمدح النّظام ويعظم شأنه، ولكن أبا حاتم كان يبرئه من القدر وينفيه عنه [2].

ونسبة أبى عبيدة إلى مذهب الخوارج تارة، وإلى القول بالقدر تارة أخرى تكشف عن صلته بمعاصريه وتدل على أنه لم يكن محبوبا بينهم، ولعل في نسبة آبائه إلى اليهودية على أنه ليس في كتاب المجاز ما يدل على هذه الميول.

شيوخه:

أخذ عن أبى عمرو بن العلاء النحو والشعر والغريب، وفي " مجاز القرآن " أثر أبى عمرو الواضح على أبى عبيدة.. وعن أبى الخطاب الأخفش، وعيسى بن عمر الثقفي، ولازم يونس بن حبيب زمنا طويلا وكتب عنه، وروى عن هشام بن عروة، ووكيع بن

(1) انظر مقدمة تحقيق كتابمجاز القرآن، من نشر مكتبةالخانجىوتحقيق محمد فواد سزكَين، ص 9.

(2) مقالات الإسلاميين 1/ 120، مقدمة تحقيق كتاب مجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكَين، ص 11.

الجراح، كما أخذ عن جماعة من فصحاء الأعراب وثقاتهم مثل أبى سوار الغنوي، وأبى محمد عبد الله بن سعيد الأموى، وأبى عمرو الهذلي، ومنتجع بن نبهان العدوى، وأبى منيع الكليبى، وكان يسأل رؤبة بن العجاج أحيانا، كما نجد ذلك في مواضع متعددة من " المجاز "[1].

منزلته العلمية:

يقول الجاحظ: " لم يكن في الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة، وكان له إلى هذه السعة في العلم نفاذ وعمق يتمثلان في قولهم عنه: " إنه كان ما يفتّش عن علم من العلوم إلا
كان من يفتشه عنه يظن أنه لا يحسن غيره، ولا يقوم بشىء أجود من قيامه به.

وقد عاصر من علماء اللغة الأصمعىّ، وأبا زيد، وكان بينهم من الخلاف ما يكون بين المتعاصرين، ولكنّ خلافهم هذا لم يصل إلى الريبة في الثقة بما يرويه كل واحد منهم، أو إلى الأنفة من الاعتراف بالحق لصاحبه حين يبدو وجه هذا الحق. ذلك لأنهم لم يكونوا يختلقون ولا يتزيدون.

ومن هنا نرى شذوذ قول بعض الباحثين الغربيين: إن أبا عبيدة كان حين يضيق علمه يختلق ما يفيده في نزعته وكان الرواة والآخذون عنهم يرجّحون أبا عبيدة إذا قاسوه بصاحبيه أو بأحدهما، على ما ساءت عبارته وحسنت عبارة الأصمعى التي هيأت له أن يفوز على أبى عبيدة في مواقف يذكرها الرواة، ولعل ملحظهم في هذا التفضيل أن أبا عبيدة كان له - إلى غزارة العلم - مرونة وحرية في

(1) مقدمة تحقيق كتابمجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكين، ص 11.

فهم اللغة لم تكن عند الأصمعى وأبى زيد، على أن أبا عبيدة وأبا زيد كانا يتفقان في كثير من مسائل اللغة [1].

ثقافة أبى عبيدة:

كان أبو عبيدة من المعمّرين، وفي عهده وضعت أسس العلوم الإسلامية على ما اختلفت نواحيها من تفسير وحديث وفقه وأخبار، وكان أبو عبيدة يشارك في أنواع هذه الثقافة مشاركة جيدة، ومن هذا تعددت كتبه وموضوعاته فيها، ونستطيع أن نتبين في كتبه جوانب من هذه الثقافة فهى لغوية بما فيها من تفسير وحديث وغريب، وهى تاريخية تتناول مواضيع في تاريخ العرب وعاداتهم في جاهليتهم أحيانا وفي إسلامهم أحيانا أخرى، وقد تتجاوز ثقافته هذه الأمة العربية إلى عادات وأخبار لغير العرب.

أبو عبيدة في رأى معاصريه:

على أن سعة معارف أبى عبيدة ونفاذه فيها لم تسم به إلى حيث تحول دون أن يصله النقد من معاصريه في حياته، ومن تابعيهم بعد وفاته، وقد كانت شعوبيته - وهى الموقف الذي يتخذ فيه أبو عبيدة صفة المعادى أو المناوئ للعرب - مدخلا تسرب منه إليه الكثير من النقد الذي لم يؤاخذ به غيره فإذا ما أردنا أن نعرف بعض الأمثلة لهذا كان من ذلك أنه لا يقيم البيت من الشعر إذا أنشده حتى يكسره، وأنه كان يخطىء إذا قرأ القرآن نظرا، وأنه يلحن في قراءة الشعر - إلى أشباه لهذا.

وليس هناك شك في أن أبا عبيدة كان يلحن حين يتحدث، فالحديث اليومي العادىّ أيام أبى عبيدة لم يكن من سلامة البنية بحيث يلتزم فيه الإعراب، وشأن أبى عبيدة في هذا شأن غيره من المتحدثين الذين كانوا يكرهون التزام الإعراب وسلوك سبيل " التقعير " في حديثهم

(1) المصدر السابق، ص12.

العادىّ. وأما أنه كان لا يقيم البيت من الشعر، وأنه كان يلحن فمردّه فيما نرى ضعف الملكة التطبيقية عند أبى عبيدة، وهو أمر مألوف غير غريب حين تتسع الفروق وتعظم بين لغة الحياة اليومية ولغة العلم والأدب، أما ما رآه أبو عبيدة من آراء نحوية وخالفه فيها النّحاة وخطؤوه فهو الأمر الذي يجب أن يكون له محمل يليق بمكانة أبى عبيدة العلامية.

والذي نرجو أن يكون صوابا في مسلك أبى عبيدة أنه كان يعتمد على حسه اللغوي الخاص في إعراب آيات أو أشعار بدون أن يقدر ما كانت تؤسسه المدرسة النحوية في عهده من قواعد تلتزم السير عليها ولا تتعداها، ومن هنا جاء نكيرهم عليه.

على أن اتجاه أبى عبيدة الذي انصرف فيه - قاصدا أو غير قاصد - عن مسلك النحويين من معاصريه لم يعدم تقديرا من الدّارسين المعاصرين الذين يعنون بتاريخ النحو العربىّ فأبو عبيدة التفت إلى أبواب من سر العربية حال دون الاستفادة منها مسلك النحاة بما أحكموا من قواعد وأسسوا من أسس [1].

الحس الفنى عند أبى عبيدة:

ويتصل بهذا أن أبا عبيدة لم يكن راوية وأخباريا جافا وحسب، وإنما كان - إلى وفرة محصوله العلمي - يدرك ما في اللغة والشعر من جمال فنى، ويقف عنده، ويقارن الصور الشعرية بعضها ببعض، ثم ينبه على المعاني الجديدة الخاصة بكل شاعر، وفي التراث الأدبى العظيم الذي خلّفه لنا أدلة واضحة على هذا.

تصانيفه:

نقل الرواة أن تصانيف أبى عبيدة كانت تقارب المائتين، ولكن أغلبها لم يصل إلينا إلا عن طريق ذكره في المصادر التي تحدثت عن

(1) تحقيق كتاب مجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكين، ص 12.

أبى عبيدة فقد ذكر ابن النديم له مائة وخمسة، وورد في كتب أخرى ما لم يذكره ابن النديم منها.

مجاز القرآن:

يذكر المؤرخون أن ابراهيم بن إسماعيل الكاتب أحد كتّاب الفضل ابن الربيع سأل أبا عبيدة عن معنى آية من القرآن فأجاب عن السؤال واعتزم أن يؤلف مجاز القرآن. ومهما كان الداعي إلى تأليف هذا الكتاب فقد كان أبو عبيدة يرى أن القرآن نص عربى، وأن الذين سمعوه من الرسول ومن الصحابة لم يحتاجوا في فهمه إلى السؤال عن معانيه لأنهم كانوا في غنى عن السؤال ما دام القرآن جاريا على سنن العرب في أحاديثهم ومحاوراتهم، ومادام يحمل كل خصائص الكلام العربي من زيادة وحذف وإضمار واختصار وتقديم وتأخير.

ومن هنا فسر القرآن وعمدته الأولى الفقه بالعربية وأساليبها واستعمالاتها والنفاذ إلى خصائص التعبير فيها، ولما كان هذا الاتجاه لا يبعد كثيرا عن " تفسير القرآن بالرأى " وهو الأمر الذي كان يتحاشاه كثير من المعاصرين له من اللغويين المحافظين فقد تعرض مسلك أبى عبيدة هذا لكثير من النقد فأثار الفراء الذي تمنى أن يضرب أبا عبيدة لمسلكه في تفسير القرآن، وأغضب الأصمعىّ، ورأى أبو حاتم أنه لا تحل كتابة " المجاز " ولا قراءته إلا لمن يصحح خطأه ويبينه ويغيّره، وكذلك كان موقف الزجاج، والنحاس، والأزهريّ منه.

وقد عنى بنقد أبى عبيدة على بن حمزة البصري المتوفى سنة375 هـ في كتابه: " التنبيهات على أغاليط الرواة ".

على أن " مجاز القرآن " على الرغم من الذي سدد إليه من نقد ظل بين الدارسين مرجعا أصيلا طوال العصور فقد اعتمد عليه ابن قتيبة

(276هـ) في كتابيه " المشكل " و " الغريب "، والبخاري (255 هـ) في
" الصحيح "، وكذلك اعتمد عليه الطبري (310 هـ) في تفسيره وأكثر من مناقشته ومقارنة رأيه بآراء أهل التأويل والعلم، واستفاد منه أبو عبد الله اليزيدي (311 هـ) ، والزجاج (311 هـ) في معانيه، وابن دريد (321 هـ) في " الجمهرة " وأبو بكر السجستاني
(330 هـ) في " غريبه " وابن النحاس (- 333 هـ) في معانى القرآن، والأزهرى (370 هـ) في التهذيب وأبو على الفارسي في الحجة
(377 هـ)، والجوهري (391 هـ) في الصحاح وأبو عبيد الهروي (402 هـ) في الغريبين، وابن برى (582 هـ) في حواشى الصحاح وغيرهم من المتقدمين، ومن أهم من استفاد من كتاب المجاز من المتأخرين ابن حجر العسقلاني في " فتح الباري " [1].

حول اسم مجاز القرآن:

ذكر ابن النديم كتبا لأبى عبيدة تتصل بالقرآن: " مجاز القرآن "، و" غريب القرآن "، و" معانى القرآن " ثم " إعراب القرآن "، وكذلك صنع من جاء بعد ابن النديم. وهذا الصنيع يفهم منه أن هناك كتبا متعددة لأبى عبيدة في هذا الموضوع، وهنا يأتى السؤال الآتي: هل ألف أبو عبيدة كتبا بهذه الأسماء؟

أو هى أسماء متعددة والمسمّى واحد هو هذا الذي بين أيدينا الآن وهو " مجاز القرآن " ؟

والذي نظنه أن ليس هناك لأبى عبيدة غير كتاب " المجاز "، وأن

(1) مقدمة تحقيق كتابمجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكين، ص 14.

هذه الأسماء، أخذت من الموضوعات التي تناولها " المجاز " فهو يتكلم في معانى القرآن، ويفسّر غريبه وفي أثناء هذا يعرض لإعرابه. ويشرح أوجه تعبيره وذلك ما عبّر عنه أبو عبيدة بمجاز القرآن فكلّ سمّى الكتاب بحسب أوضح الجوانب التي تولّى الكتاب تناولها، ولفتت نظره أكثر من غيرها. ولعل ابن النديم لم ير الكتاب، وسمع هذه الأسماء من أشخاص متعددين فذكر لأبى عبيدة في موضوع القرآن هذه الكتب المختلفة الأسماء.

منهج التفسير عند أبى عبيدة:

مرت الإشارة في مواطن متعددة من هذه الكلمة إلى جوانب من شخصية أبى عبيدة كانت تميزه عن معاصريه، وتتجه به في فهم النصوص اتجاها خاصا، وبتلك الإشارات نستغنى عن إعادة الحديث في حريته في فهم النصوص، وسعة ثقافته ونظرته إلى نص القرآن إلخ. ولكننا نضيف هنا أن مما يمتاز به أبو عبيدة في تفسيره أنه لم يتقيد بالقيود التي كانت المدرستان البصرية والكوفية تضعانها لفهم النصوص العربية، لأن هاتين المدرستين كانت في دور التكوين، وبهذا نجا أبو عبيدة من أن يخضع لقواعدهما. وقد عنى - في ضوء هذا التحرر - بالناحية اللغوية في القرآن، وأكثر من الاستشهاد على الآيات بالشعر العربي، وعنايته بالجانب اللغوي صرفته عن الاشتغال بالقصص القرآنى وتفصيل القول فيه، كما صرفته عن تتبع أسباب النزول إلا عند ما كان يقتضى فهم النص التعرض لذلك.

رواية كتاب المجاز:

وكان حظ المجاز من رواية الناس غير قليل فقد رواه جماعة من الناس، وليس من اليسير تحديد عدد الروايات، ولكن المراجع احتفظت بطائفة منها نجملها فيما يلى:

1 - رواية أبى الحسن على بن المغيرة الأثرم

2 - رواية أبى حاتم السجستاني

3 - رواية رفيع بن سلمة.

4 - رواية عبد الله بن محمد التوزى

5 - رواية أبى جعفر المصادرى.

ولم يصل إلينا من هذه الروايات إلا رواية الأثرم، وقد تفرعت إلى فروع ثلاثة حسب الرواة عن الأثرم [1].

* * *

(1) مقدمة تحقيق كتابمجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكين، ص 20.